دعوة إلى نهضة عربية جديدة

اسماعيل صبري عبد الله

رئيس الجمعية العربية
للبحوث الاقتصادية.

- ١ -

زلزلت الأرض العربية زلزالها، وأخرجت أثقالها ولا تزال. لم تنطفىء كل نيرانها بعد ودخانها يظلم الأفق ويخنق الأنفاس. دماء الضحايا التي تلف أطلال البنى تكاد لا تجف... والعقول والقلوب في دوامة تقتلع الأقدام من الأرض اقتلاعاً. والحمم تزمجر في باطن الأرض منذرة بالمروع من جديد الكوارث. وما كان لنا أن نقول ما لها لولا أن قشور الأمور وبغاث الطيور لم تصرف عقولنا عن جذور المآسي وحقيقة الجوارح. لم توقظ أفئدتنا نيران لبنان ودماؤه، ولم نفزع لحرب السنوات الثماني بين العراق وايران وما أهلكت من حرث ونسل، ولم نع تفاقم قمع الحكام وتفتّت سلطاتهم في السودان، ولم يروعنا اقتتال الفلسطينيين فيما بينهم، ولم نُلقِ بالاً لدماء أهل الصومال تنهمر على أيدي اخوتهم. نظرنا إلى دعاوى العنف والإرهاب كأمور عارضة لا تنم عن مرض ذميم. وغضضنا الطرف عن إبادة الأكراد بالغازات السامة، وسكتنا عن حدث جلل مثل احتلال الكعبة الشريفة.

أما الآن بعد الكارثة، فلم يعد أمامنا نحن العرب إلا **طريقان لا ثالث لهما**: طريق التدمير المتجدد الذي لا ننفك نحمّل مسؤوليته أطرافاً خارجية، ولا نذكر لأنفسنا إلاّ امجاداً ماضية حقيقية أو متوهمة؛ وطريق النهضة الحقة حيث يأخذ كل مواطن عربي بيد الآخر ليقيموا فوق الأشلاء والأطلال مجتمعاً عربياً عصرياً قوامه المعرفة ولحمته التقدم وسداته الديمقراطية والعدل الاجتماعي، وقواعده الصلبة تنمية شاملة ومطّردة.

- ٢ -

ويقف أصحاب هذه الدعوة بصلابة على أرض العقلانية متنسِّمين روح العصر. ومن هنا كانت دعوتهم إلى رفع راية القومية العربية عالية خفّاقة على قوائم من ضرورات الحاضر والمستقبل. بعيداً عن الوحدة ولو بالقوة، ونفياً لمقولات الإقليم القاعدة والقائد الملهم، وما إلى ذلك مما عرفته

عصور قديمة، تنادي بأن القومية العربية لم يعد لها من معنى إلا التنمية العربية الشاملة المطّردة المتكافئة التي لا يمكن أن تستمر أو تستقر إلا في إطار من الديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان العربي، وتوفير القدر المعقول من العدالة الاجتماعية بين المواطنين على اختلاف فئاتهم وتنوُّع أقطارهم واختلاف مساكنهم.

ندعو كل العرب إلى إدراك حقيقة أن قوة الأمم في عصرنا الحالي تقاس بالتقدم العلمي والتقاني والقدرات الصناعية المتطورة، واقتناع الشعوب بأنها تبني حاضراً كريماً ومستقبلاً أفضل. لقد آن الأوان أن نتصور قوتنا نابعة من جهدنا الدؤوب الخلّاق، وأننا وحدنا القادرون على بنائها، وأنها توفر لنا التكافؤ في التعامل مع الآخرين والمنعة ضد من يريد بنا شراً. يجب أن نكف عن النظر إلى القومية العربية والوحدة العربية على أنها إحياء لماضٍ أياً كان رأينا فيه، لأن التاريخ لا يعود القهقرى أبداً. ويجب أن نرى فيهما ضرورة بقاء المستقبل وأمانه. فليس أمامنا من خيار إلا بين هذه التنمية الشاملة المطردة والتمزق والتشتت والتهميش مع الترنح بين الفقر والجهل والمرض وسفك الأخ دم أخيه بأية ذرائع.

لا بد أن نتخلّى نهائياً عن الربط بين القومية العربية وانتصار حزب بعينه أو استبداد حاكم بذاته أو قوة عسكرية فذّة. فكل ذلك زائل، ويغلب أن يكون هشّاً تذروه الرياح. ولا بد أن نراها على العكس، قضية تحرير المواطن العربي في كل مكان من الفقر والجهل والمرض والخوف والحقد ليأخذ مكانه بين البشرية في القرن التالي شريكاً يُعطي بقدر ما يأخذ. ليس لنا من مستقبل إلا أن نكون سوقاً تضم مئتي مليون منتج ومستهلك، ووطناً عريضاً يزخر بأهل العلم وأصحاب الكفاءات، وكياناً كبيراً يشارك باقتدار في تحقيق آمال البشرية، وفي إدارة شؤون الجماعة الدولية.

إن قوام النسق القيمي، الذي يجب أن يكون مرجعاً لنا ومقياساً لكل ما نفعل، أمور واضحة ومحددة: **الديمقراطية واحترام الانسان**؛ **تجميع الموارد** البشرية والطبيعية العربية في جهد لا هوادة فيه من أجل تنمية سريعة المعدلات، شاملة لكل الأقطار، نافعة لكل الناس؛ **توفير القدر الضروري من العدل الاجتماعي** والتحسُّن المستمر في معيشة أفقر المواطنين. لتكن قيمنا مستمدّة من احتياجاتنا، وليكن هدفنا بناء بيتنا، وليكن نضالنا ايجابياً لإثبات جدارتنا بالوجود وألا نعرِّفه سلباً بمقاومة مؤامرات الأعداء. فما فعلناه بأنفسنا أفدح مرات كثيرة مما فعله الخصوم بنا. وأعداد من قتلتهم الأيدي العربية أضعاف أولئك الذين سقطوا تحت رصاص الأعداء، وما هدمناه من معالم حضارتنا ومقوّمات معيشتنا أكبر مما فعله بها الاستعمار خلال عقود متوالية.

- ٣ -

لهذا ندعو إلى أن تكون نظرتنا إلى الأمن القومي مستمدة من هذا التفكير الجديد. فنراه أساساً، أمن جهودنا في التنمية والتقدم والمعرفة والانتاج، كما نرى في هذه الأمور ذاتها عناصر القوة الحقيقية التي يحسب الناس لها حساباً في عالم اليوم. وعلينا أن ندرك بعمق أن التعاون الدولي يصبح يوماً بعد يوم وسيلة فاعلة في تحقيق الأمن القومي، وأن الأمم قد أدركت من آلاف السنين من الحروب أن تفرق بين الخلاف في الرأي أو الرؤية الذي لا يفسد وحدة ولا يمزق صفاً، والخلاف في المصالح الذي أصبح القول السائد إن حلّه يكمن في توازن المصالح وليس في توازن القوى العسكرية. كذلك أخذ العالم يميز بين نزاع يمكن أن تحلّه المفاوضات، وآخر يحتاج إلى التحكيم، وثالث لا بد فيه من الالتجاء إلى قضاء دولي تضييقاً لرقعة ما يمكن أن يستدعي المواجهة ويُنذر بالصدام العسكري. ولا يمكن لدعوتنا إلى تجميع جهود التنمية في وطننا في اتجاه بناء

جماعة اقتصادية عربية أن ترى الحياة ثم تزدهر إلا إذا أخذنا أنفسنا بالقدرة على التعايش رغم الخلاف، وبالعزم على التغلّب على الخلاف بالحوار، وبأن ما يبدو مستعصياً اليوم يمكن أن ينفك في الغد. كذلك لن يستقيم مسعانا النهضوي العربي إلا إذا استقر راينا على التعامل مع دول الجوار التقليدية: ايران، تركيا، اثيوبيا، دول الجنوب الأوروبي على أساس من تبادل المعارف والمنافع. علينا أن نتذكر دائماً أن الشك علامة الضعف والثقة سمة الأقوياء.

- ٤ -

ولن نسير في طريق النهضة التي ننشدها إلا إذا تمكّن الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره وإقامة دولته على أرض فلسطين وتحت القيادة التي يرتضيها. فليكن **واجبنا الأول استثمار شعار احترام الشرعية الدولية وحق الشعوب في الاستقلال**. لنطرق الحديد وهو ساخن، لنفرض اتاحة هذه الفرصة لشعب الانتفاضة المجيدة. وليكن حديثنا صريحاً في هذا الشأن. إن الأقطار العربية التي وقفت بجانب الشرعية الدولية ضد غزو الكويت وأسهمت في تحريرها، مطالبة اليوم قبل غيرها أن تعطي الأولوية العظمى لحل قضية فلسطين. ونقول بالصراحة نفسها إن نجاح هذا المسعى مرتهن بتوقّف بقية الحكومات العربية عن المزايدة على ما يريده أهلنا في الأرض المحتلة. إن وقوف البلدان العربية جميعاً صفاً واحداً وراء مطالبة الشعب الفلسطيني بإقامة دولته المستقلة شرط جوهري لأي تقدم في هذا السبيل. ونحن نطالب الحكومات العربية جميعاً بأخذ المبادرة هذه المرة لطرح الحل الذي يؤمّن حقوق شعب فلسطين، ويحدد الإطار المقبول لعلاقة العرب باسرائيل.

كفانا انتظاراً لمبادرات خارجية ثم مناقشتها، وقبول جزء على استحياء، ورفض أجزاء خشية المزايدة. إن جدية العرب في تضامنهم مع شعب الشهداء، ووحدة موقفهم ووضوحه وإصرارهم عليه هي التي يمكن أن تحرّك آليات الشرعية الدولية، وتجمع مشاعر التعاطف مع من تنكّل بهم اسرائيل كل يوم. إذا كنا نريد حقاً أن يكون السلام في الشرق الأوسط قضية عربية قبل كل شيء، فإن علينا أن نقدم مشروعنا للسلام متضمِّناً جلاء اسرائيل عن الأراضي التي احتلتها في عام ١٩٦٧ بما فيها هضبة الجولان والقدس الشرقية، وأن نُقنع العالم بصدق نيّاتنا، والتزامنا جميعاً بما نطلب قولاً وفعلاً، دون مناقصة أو مزايدة. إن نجاحنا في هذا المجال يمكن أن يكون نقطة الانطلاق الكبرى نحو التنمية العربية والأمن العربي وحتى ننجح يجب أن نتخلص من أخطائنا الماضية التي يسّرت لإسرائيل استمرار اغتصابها لحقوق الفلسطينيين؛ ولا يقل خطر التهديد الأجوف هنا عن خطر الحل المنفرد.

- ٥ -

ويجب أن يكون التعمير المعركة الموازية للعمل من أجل دولة فلسطين. فالتخريب لم ينل الكويت والعراق فقط، بل إنه بالمعنى الواسع - ضياع الموارد - قد أحل الضرر بكثير من الأقطار العربية. كما أن تصورنا للتعمير لا يجوز أن يتدنّى إلى مستوى إعادة الشيء إلى أصله. فالرجوع إلى الماضي مُحال هنا كذلك. وإنما التعمير في حقيقة الأمر معركة تنمية واسعة ومتعددة الجوانب. ورغم زهدنا في ضرب الأمثال نذكّر العرب بأن تعمير أوروبا واليابان كان البداية الصلبة للنمو الاقتصادي والتقدّم الاجتماعي والسياسي والتطور العلمي الذي نشهده الآن؛ ومن ثم فإننا ندعو العرب على اختلاف أقطارهم إلى نظرة تنموية لقضية التعمير. فنحن بصدد بناء قواعد لإنتاج

السلع والخدمات جديدة تماماً. ولا يجوز أن نسلم تنمية عربية لها هذا الشأن إلى شركات أجنبية على طريقة مشروعات «تسليم المفتاح» التي طالما نقدها الاقتصاديون وخبراء التنمية العرب. إن كل ما نبني من جديد يجب أن يندرج في منظور عربي، وأن يبرز فيه منذ البداية، ثم على نحو متعاظم، المجهود العربي الذهني والعضلي جميعاً. كما أن هذه العملية الكبرى يجب أن تكون فرصتنا لبناء مراكز البحث العلمي والتقاني ودعمها في الوطن العربي، وأن تسفر عن تكوين مؤسسات تشييد عربية ضخمة قادرة على المنافسة في الخارج. ولا يجوز أن تكون قدرة العرب مجتمعة أهون من قدرة كوريا الجنوبية في هذا المجال. ولا يجوز أن ينظر أحد إلى معركة التعمير نظرة ضيقة تتمثل في أنها فرصة لتحقيق أرباح لهذه الشركة أو تلك. فالمال وحده لا يصنع التنمية. ومكاسبنا الحقيقية منها هي زيادة قدراتنا الانتاجية والعلمية والتقانية، وإقامة الأجهزة القادرة على النهوض بمشروعات التنمية العربية الكبرى التي تُرسي دعائم الجماعة الاقتصادية العربية وتُوفر لها القاعدة الاقتصادية الحريصة على تطويرها وتوثيق عُراها والقادرة على كبح جماح تقلّب الأمزجة السياسية لدى الحكام.

- ٦ -

وواضح من كل ما ذكرنا أن **النهضة العربية** المطلوبة تقتضي قبل كل شيء حشد الجهود للوقوف بحزم ضد مظاهر الشماتة والانتقام الجماعي واستعار البغضاء بين أي شعب عربي وشعب عربي آخر. لقد حاول طرفا الصراع المأساوي في كارثة الخليج أن يسوغ موقفه بدعاوى إسلامية. وكثيراً ما ظلموا الدين الحنيف. فهل لنا أن نذكّر جميع الأطراف ببعض من آيات القرآن الكريم؟

يقول تعالى للعرب الذين شتتتهم في الجاهلية النعرات القبلية وثارات العشائر والبطون:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فالّف بين قلوبكم﴾[1]. ثم يصف المؤمنين بقوله وهو خير قائل: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين للغيظ والعافين عن الناس﴾[2].

لقد تحدثنا طويلاً عن المستقبل. ولكن الأمم لا توجد من فراغ. ولكل أمة في تراثها ما ينفع في تطوّرها. ومن أعلى قيم حضارتنا العفو عند المقدرة، ونفي الشماتة ونبذ القبلية الشعوبية، كما يردد المسيحيون منا الدعاء: «المجد لله في الاعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرّة».

* * *

بالعفو والحب والتسامح والتكافل يمكن أن نقفز فوق الكارثة وآثارها المدمرة لنبني **النهضة العربية الثانية**. وبغيرها نتفرق ونتمزّق وتذهب ريحنا.

إننا لا ندعو إلى «مصالحة» من النوع الذي يلتقي فيه الملوك والرؤساء العرب ليتعانقوا وفي القلوب ما فيها من شكوك، ويبقى في الواقع العربي ما يتلفه من أدواء، وإنما نريد لقاء شعبياً على أوسع نطاق يحقق إرادة قومية لبناء نهضة جديدة تفرض نفسها، في الواقع الملموس لجماهيرنا المتعطّشة إلى الحرية والعدل، والمتطلعة إلى الحياة الكريمة في مجتمع يتقدم يوماً بعد يوم □

(١) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١٣٤.